رؤية العالم في الشعرية الصوفية في{ديوان قالت الوردة} لعثمان لوصيف

The Vision of the World in Sufi Poetry In { Diwankalat al warda}to Othman Lusif

لخضر دحومان[1]، خالد عطار[2]

lakhdardahoumane[1], khaled attar[2]

[1]المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي، تيسمسيلت. (الجزائر)، **Lakhdardahoumane22@gmail.com**

[2]المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي، تيسمسيلت. (الجزائر)، **khaledattar100@gmail.com**

تاريخ الاستلام: 2020/10/23 تاريخ القبول: 2020/12/25 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:عرف الشعر العربي عديد الظواهر التي أطرت تجاربهالشعرية، ومن هذه الظواهر التصوف الذي كان فضاء لعديد الشعراء حيث أضفى على شاعريتهم الصبغة الصوفية،والتي كانت بدايتها مبكرة مع أمثال أبي الحسين النوري المتوفى (ت295هـ)، وظلت الشعرية الصوفية منهلا لشعراءاختلفت تجاربهم باختلاف شعريتهم الفردية، واختلاف النمط الصوفي الذي يعتنقونه، واختلاف ظروفهم الزمكانيةإلى عصرنا هذا، حيث نجد تجربة الشاعر عثمان لوصيف (1951/2018م) التي تنزع نحو رؤيةالعالم بمنظار صوفي شمولي، وهو ما نحاول التعرف عليه من خلال قراءتنا لديوانه "قالت الوردة".

كلمات مفتاحية: شعرية؛ صوفية؛ عالم؛ لوصيف؛ الوردة.

Abstract:poetry knew many phenomena that framed poetic experiences. Sufism was one of them which had an early start with AbouAlhoussain Al nouri(died in 295,H).Poets continued thereafter to express their different experiences using the different sufi style and different temporal and spatial conditions. In this regard, Othman Loussif, born in 1951 and died in 2018, experience is one that is distinguished with the vision of world. Indeed this is what the researcher istrying to reveal in this article, through a reading of his volume of poetry in Diwankalat al warda, "The Rose Said".

Keywords: Poetry; Sufism; World;Loussif; Rose.

المؤلف المرسل: لخضر دحومان، الإيميل: Lakhdardahoumane22@gmail.com

1.مقدمة:

من المعلوم أن الشعر ليس مجرد وزن وقافية، بل هناك خصائص تتمثل في مضمون ألفاظه ومعانيه، وكيفية توظيفها بما يلتمس منه الحكمة وتتنوع فيه الأغراض، بألوان زاهية من ألوان الصياغة الأدبية، في إيقاعات مطربة، يقول ابن سلام الجمحي (231هـ) "وفي الشعر مصنوع مفتعل، موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيَّةٍ ولا أدب يستفاد منه، لا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف"(محمد، (د ت)، صفحة 4)، الشعر حالة من السياحة بأجنحة الخيال في فضاءات الكون تكشف أفاقه وتؤلف جمالياته المتناثره، ومن جهة أخرى اكتشاف للنفس أيضا فالشعر أقرب أشكال التعبير عن النفس الإنسانية فلحظة الشعر هي انعكاس صدى المحيط في النفس فـ: الشاعر لا ينطق بالشعر إلا عندما يشعر بنفسه وبما يحيط به من طبيعة وكون زاخرين بالجمال والجلال ومملوءين بالأحداث والمناسبات التي تلح عليه وتدفعه لنظم الشعر والنطق به"(غراب، 2007، صفحة 9).

وعبر مسيرته الطويلة اتسم الشعر بعديد الظواهر الفنية والفكرية التي ساهمت بلا شك في تجديد مضامينه وإثرائها ومن أهم هذه الظواهر التصوف الذي يرجع سر الاهتمام به لما يجمع بينه وبين الشعر من علاقات وروابط جدية"(بوسقطة، 1429هـ، 2008م، صفحة 137).

تمثل العلاقة بين الشعر والتصوف حالة من التجدد حيث تخضع إلى هيامية الشعرية التي تختلف من شاعر لآخر بل ولسباحتها المستمرة في ذات الشاعر الواحد، ويقابلها نمط التصوف الذي يعتنقه الشاعر إضافة لما يغلف الجميع من مؤثرات زمكانية تحكم شعرية الشاعر وصوفيته، فمع تميز الشعرية الصوفية بنمطها الخاص، ظلت تجارب الشعراء الصوفية تختلف باختلاف الشعراء وتصوفهم وبيئاتهم الزماكانية.

وفي هذا المقال سنقف عند تجربة شعرية صوفية تنزع نحو رؤية العالم بمنظار صوفي، تلك هي تجربة عثمان لوصيف، التي يحاك في صدورنا حولها أسئلة خلاصتها: كيف رأىعثمان لوصيف العالم في شعريته الصوفية ؟.

وقد اتخذنا من ديوانه " قالت الوردة" وأقواله مصدرا للكشف عن تجربته هذه، وذلك بعد ضبط مفاهيم لابد منها.

2.رؤية العالم:

أول من صاغ هذا المفهوم الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت (1728/1804: Kant Emmanuel) ويعبر عن الموقف العام تجاه الحياة وتمثّلا لواقع العالم الفيزيائي والاجتماعي ونمط من الالتزام الوجودي.(دورتيه، 2009، صفحة 453)وعنه أخذ فيلهلم ديلتاي (1911 / Wilhelm 1833: Dilthey) وماكسشيلر(1928/1874:Max Scheler) وكارل ياسبرز (Karl Jaspers:1969/1883) مارتن هايدغر(HedeggerMartin:1889/1976)كارل مانهايم(Mannheim:1893/1947Karl)وجورج لوكاتش ...

وقد تباينت مفاهيم هؤلاء لرؤية العالم، لاختلاف الفروع العلمية التي ينتمون إليها، ففيلهلم ديلتاي الذي يعد أول من نحت مصطلح "رؤية العالم"، يعده "مكوّنًا فعّالاً لما يعانيه الفرد ويعيشه، ... يضفي صبغة الوحدة على تنوّع النظرات كما هي عند الأفرادا"(ر، 1982 ، صفحة 62)وعند محمد تقي مصباح اليزدي "مجموعة من المعتقدات و النظرات الكونية المتناسقة حول الكون و الإنسان بل و حول الوجود بصورة عامة".(اليزدي،، 1429-2008، صفحة 22)، قد تكون فردية أو فئويةوقد تكون أيديولوجية أودينية... .

فهي بحث في فلسفة الفلسفة. يُعنى بالتصورات الأساسللإنسان، في سَرَيانها وشمولها، ودلالاتها وتأثيراتها، ورؤىً متعددة، تتسم بالفردية، منها: اللاهوت والميتافيزيقا والفلسفة والفنون، تسعى لكشف الحقيقة، باكتشاف المشتركات فيما بينها؛ لتُشكّل أساساً لأخلاقيات الإنسان وتصرفاته وإضفاء معنى لصروف حاله ومآله في رؤية للعام متناسقة.

ومن المهم أن نتبينالعلاقة بين الأدب ورؤية العالم التي تكمن في أن"نقطة الأتصال بين البنية الدلالية، والوعي الجماعي الطبقي، هي أهم الحلقات عند جولدمان والتي يطلق عليها مصطلح (رؤية العالم) فكل عمل أدبي يتضمن رؤية للعالم".(فضل، 2002، صفحة 59).

3.مفهوم الصوف وأطواره:

1.3. مفهوم التصوف: بحسب عبد الرزاق نوفل في ذاكرة لفظة التصوف إشارات أربع: إشارة لقول البيروني كلمة التصوف مشتقة من "سوفيا" اليونانية أي الحكمة، وإشارة للصفاء والصفو؛ لسلوك الصوفية تزكية النفس لتصفو من أدران أهوائها الجسدية، وإشارة لجماعة سكنوا صفة المسجد النبوي، مؤثرين حياة التقشف والكفاف، باتين الدنيا ثلاثا، وإشارة لجماعة لبسوا الصوف الخشن شعارا للتصوف؛ وهذا أقرب للصواب(نوفل، (د ت)، الصفحات 15-17)

وفي ذاكرة مصطلح التصوف عديد المفاهيم بحسب التجارب الفردية والجماعية للتصوف من ذلك: " العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبِلُ عليه الجمهور من لذة ومال وجاه".(الرحمان، صفحة 497)

فهي التجربة الروحانية الوجدانية التي يعيشها السالك في الملكوت للحضرة الإلهية والذات الربانية لكشف الحجب ومشاهدة التجليات، ولا يتم إلا بجهاد النفس كما يرى الأمير عبد القادر التصوف " جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله، وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربانية لا شيء آخر في سبيل معرفة إلهه"(السيد، 1985، صفحة 115). ومن جيد التعاريف المعاصرة قول محمد مرتاض:"التصوف هو الوصل إلى الله الحق، وليس مجرد الوصول إلى مقام ما".(مرتاض، 2009، صفحة 12)

2.3. أطوار التصوف: تاريخيا يقسم الشوبكي التصوف أطوارا ستة يمكن حصرها في ثلاثة هي:

1– طور التسامي عن الحياة المادية: ويعرف بالزهد، ظهر في القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني إلى عصر كبار التابعين(يوسف، 2002، الصفحات 385-428)، وتعدهذهنشأة التصوف، ويمثله الخلفاء الراشدون وأهل الصفة الذين اعتكفوا في المسجد النبوي على العبادات، في تقشف وتجرد من الدنيا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مثلهم الأعلى، شعارهم قوله تعالى: ﴿**وما الحياةُ الدنْيا إلاّ متَاعالْغُرور**﴾، [الحديد من الآية: 20]، فهو عصر توازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، فلم يغلوا لمخالفة الغلو النصوص كقوله تعالى:﴿**وابتَغِ فِيمَا آتَاك اللَّهالدار الآَخِرة ولا تَنسنَصِيبكمِنالدنْيا**﴾[القصص: الآية.77].

2– طور التشبه بالسابقين:أو التصوف السني، ويبدأ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري والقرن الثالث، وامتاز بالإتباع والحذر من الابتداع وممن يمثله إبراهيم بن أدهم (ت 161هـ) وهو غاز ببلاد الروم، و داوود الطائي (ت 165هـ) اشتغل بالفقه واشتهر بالخلوة، ومنهم الحسن البصري،...، ورابعة العدوية الداعية إلى حب الله لذاته (ت185هـ) ومن أشعارها في حب الله:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي *** وأبحت جسمي من أراد جلوس

فالجسم مني للجليس مؤانس *** وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس(الشوبكي، ، مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، 2002، الصفحات 355-428)

كانوا يزكون أنفسهم وفق الكتاب والسنة، ويعد تعريف الجنيد ترجمان لتجربة هذه الطور يقول: " طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به "(السلمي، 1960، صفحة 141)سعيا للجمع بين الشريعة النصية والباطن العرفاني.

3- طور التصوف الفلسفي: برز في عهد الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري حين سيطرت حياة الترف، وانتشرت الفلسفية التي نقلتها الترجمة، وتدفقت معتقدات لاهوتية غريبة عن الإسلام، كالزرادشتية، والمانوية، والمزدكية، والديصانية، والمرقونية وغيرها، وامتزجت فلسفة اليونان، وزهد الهنود، وزندقة الفرس والشك المسيحي، والملاحدة، وأدت حرية العقل التي دعت إليها المعتزلة إلى البلبلة الفكرية "(الدين، 1998، صفحة 329)مما أثر في البنية الثقافية فبرز تيار التصوف الفلسفي، فظهر نظرية الفناء للبسطامي، ونظرية الحلول مع الحلاج، ووحدة الوجود لابن عربي، والشطحات الصوفية لابن الفارض والشريف الرضي وجلال الدين الرومي والسهرودي ... حتى التبس التصوف على البعض بالمعتقدات المسيحية واليهودية والبوذية والنرڤانا الهندية والتصوف الفارسي.

ويقر البعض بصعوبة تعريف التصوف إذ يراه "مرحلة من مراحل التفكير، أو إحساس في طبيعته صعوبة القابلية للتعريف، إنه يبدو على صلة بمحاولة العقل الإنساني أن يفهم حقائق الأشياء. وأن يتمتع بالوصول إلى الله. أما الجانب الأول من هذه المحاولة فهو الجانب الفلسفي من التصوف، وأما الثاني فهو الجانب الديني والمجهود الأول نظري تأملي والثاني عملي"(حسان،، 1955، صفحة 19)

ثالثا : وشائج التصوف والشعرية: وقد أدى ذلك بالتصوف إلى النزوع الروحي الوجداني، الذي يحتاج إلى لغة شعرية عاطفية دقيقة الرهافة ذات كفاءة فنية عالية في التعبير عن المشاعر الروحية، وسامية في ترجمة تلك اللطائف الروحية الموغلة في الوجدان والكامنة في الملكوت، حالة اعتمالهما في النفس، فتلك اللطائف والفيوضات تمتاز بالبراعة في الاحتجاب والتخفي، فقد لا تتبدى إلا للصوفي ولذا تضطره إلى التشفير

والترميز، فـ" هناك وشائج قربى تجمع بين التصوف والفن بشكل عام وبينه وبين الشعر بشكل خاص هذه الوشائج تتمثل في أن كليهما يحيل إلى العاطفة والوجدان"(نصر، 1983، صفحة 53)

فالصوفي والشاعر يجمع بينهما المعاناة الوجدانية العميقة نفسها، السمو الروحي، والحاجة إلى الأسلوب الفني الذي يفوق المألوف، الرهافة الشعورية الباعثة على التعبير الرمزي، لذا يُعدُّ الصوفي عند إبراهيم محمد منصور: " شاعر سواء نظم القول أو نثره، فأداة الإدراك هي نفسها وسيلة الشاعر"(منصور، 1990، صفحة 24)، ويؤرخ شوقي ضيف للتجربة الشعرية عند الصوفية بقوله:" منذ أواخر القرن الثالث الهجري تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات الصوفية، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين وهم في أثناء ذلك يتواجدون وجدا لا يشبهه وجد، أما منذ أبي الحسين النوري المتوفى سنة 295هـ فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر"(ضيف، (د.ت)، الصفحات 114-113).

رابعا: تجربة الشعرية الصوفية لعثمان لوصيف: وفي رحلتها الطويلة تقف بنا التجربة الشعرية الصوفية عند الشاعر عثمان لوصيف القائل: " الصوفية عندي ثورة إذن ثورة للتغيير وقيادة البشرية، إذا شئت سمها صوفية جديدة، أخلط فيها العلم والفن والعقل والفلسفة والدين لتغيير الواقع والوصول بالإنسانية إلى المعارج الأولى العالية حتى يحقق الإنسان إنسانيته وجوهره الحقيقي". (إبراهيم، 1999، صفحة 17)

الشاعر يرى الصوفية منهجا شاملا يجمع العلوم والتقنية، إلى الفنون والفلسفة، وثورة شاملة تهدف للتغيير والتجديد، إنها صوفية جديدة تصلح منهج حياة لقيادة البشرية، تسلك سبيل البحث عن الحقيقة بغية الوصول بالإنسانية إلى المعارف الأولى والخفية؛ لتفسير الكون، فالمعارف عنده تتكامل لتكشف الحقيقة، حقيقة الجوهر الروحي للإنسان، وهذا هو التصوف الإسلامي في نظر الشاعر، والصوفي عنده الإنسان الذي يصنع الحياة، ويكون في ميدانها ساعيا بالجد لتغيير البشرية، يقول: " أنا أؤمن أن الصوفي يكون في ميدان الحياة ويحرك عجلة الحياة أكثر من هذا يكون رائدا للبشرية"(إبراهيم، 1999، صفحة 17)، يتخذ الشعر وسيلة تتوارد فيها الأسئلة كالفلسفة، حيث يصبح الشاعر فيلسوفا والشعر فلسفة، وتلك هي حقيقة الشعرية الصوفية يقول:" الشعر يجب أن تسكنه الحيرة والبحث عن الحقيقة مثل الفيلسوف". (قرصاص، 1999، صفحة 17)

وأول ما تثور عليه هذه الصوفية، مفهوم أن الصوفية: دروشة وانطواء وانزواء، وتمائم، وخرق، ودفوف ... .، كما صرح عثمان لوصيف في قصيدته "أيها الشيخ":

أيها الشيخ...!

لملم قراطيسك السود

لملم حواشيك... والخرق البالية

آه لملم رفوفك

لملم دفوفك

وارم بها في اللهيب

بخورا لأيامك الفانية

أيها الشيخ...!

يا ذا التمائم ... والجبة الزاهية

بك أن تستريح

بمبخرة

ومريرين حولك في هدأة الزاوية

لك أن تستريح في حلقات السماع

وتلتمس العفو... والعافية

ولنا نحن... أن نتلظى

لنا أن نغامر في الظلمات

لنا أن نغير في الهبوات

لنا أن نخوض في اللجة الحامية

أيها الشيخ...!

حتى نعانق نور الصباح

ونقتطف الوردة القانية(لوصيف ع.، 2000، صفحة 68)

وتلك المغامرة وذاك التلظي وراء اللحظة السرمدية التي لا تتأتى إلا للفنانين والصوفية الذين غايتهم معانقة نور الحقيقة الإلهية، فالشعرية الصوفية هي وحدها القمرة التي تلتقط صورة تلك اللحظة السرمدية لرؤية حقيقة العالم المطلقة، إذ تسبر أغوار الذات والكون حال اعتمالهما، والشعر هو الترجمان الذي يعبر عن تلك اللحظة السرمدية، التي يجتمع فيها الماضي والحاضر والمستقبل، والكون في ذات الإنسان، ولذا تفردت الشعرية الصوفية بلغتها الرامزة.

"والرمز الصوفي عالم خاص لكي ندخله لابد أن نتجاوز العقل لأنه إنما يعمل وفقا لمبدأ الذاتية وعدم التناقض، والرمز على العكس من ذلك يحتضن الأطراف المتناقضة وهو لا ينكشف عن طريق التصورات المجردة، وإنما يكشفه الحدس الذي يمس باطن الذات فيجلو لها حقائق تجل عن الفهم لو أردنا أن نتناولها بعد المنطق التقليدي والمعرفة العقلية"(جودة، 1982، صفحة 145)

فالشعرية الصوفية في سعيها وراء اللحظة السرمدية انزاحت للترميز والتلميح والإشارات والتشفير، وهذا ما اتسمت به الشعرية الصوفية عند عثمان لوصيف خاصة في ديوانه " قالت الوردة " المؤلف من عشرين مقطعا، والذي نحاول من خلال قراءته استجلاء رؤيته للعالم.

فمن البداية تبرز تلك الشعرية الصوفية إذ كانت البداية عن بداية الخلق منذ الأزل، برؤية فنية شعرية صوفيةعالمية، تنبئ عن قوة عمقشعور الشاعر بالأمر الكوني الرباني "**كن**" لبدء الخلق، يتراوح بين "الصيحة" و"الدوي" و" الاستشاط" و "الرعد"، كما اتسم بوضوح الفكرة، وبريق الصورة، ما يدعو للانبهار بروعة الجمال المتلألئ ورهبة الجلال. يقول:

صيحة الأمر دوت

وكن فاستجاب السكون العميق

وحنت نواقيسه فاختلج

ولها

واشرأب الظلام امتزج

بالرؤى والمرايا التي لألأت

أنجما وهزج

صيحة

واستشاط السديم

تمخض رعدا عناصره تتفكك

أو تندمج(عثمان ل.، 2000، الصفحات 5-6)

كن التي رسمها زهرة وجعل منها أيقونة على غلاف الديوان، تماشيا مع بداية رحلة البحث عن الحقيقة من بداية الخلق بأمر الله "**كن**"، وما أعقبه من مظاهر التخلق والوجود وهي وقفة جديرة بالتأمل، كيف خلق الله سبحانه المكان وشغله بالزمان؟ وكيف استحدث أركان الدنيا: الأرض، السماء، الشمس، القمر والنجوم، واستكمل إحكام التدبير والصنع بالجبال والأنهار والوديان ولما هيأ بمشيئته وقدرته نظام الكون قال للإنسان: **كن**، فكان... وأسبغ عليه نعمه ليعبده... إنها قصة: الخالق، والخلق، والمخلوقات... خالق أعجز وأبهر، وخلق تفرق وتحزب، منهم من وحد مع الكون منسجما، ومنهم من شذ فكفر، ومخلوقات سُخرت لإسعاد المخلوق.يقول الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ [سورة الطلاق، الآية 12].

هكذا تتجلي قدرة الخالق في تصميم هذا الكون فسيح الأرجاء وما فيه من مظاهر التخلق والوجود، التي استوقفت الشاعر فراح يصور لنا بدأ الخلق بفنية شعرية، وبتأمل فلسفي، اتحدا في رؤية صوفية للعالم، تصف مظاهر كونية من ظلام وصيحة ورعود وغيوم وبروق ورياح ... الخ.وهي محاولة للإجابة عن تساؤلات كونية طالما توقفت عندها الخليقة حائرة بين الجلال والجمال.

في الحديث: { لما خلقَ اللهُ الأرضَ جعلتْ تَميدُ فخلقَ الجبالَ فقال بِهَا عليها فاستقرتْ فعِجبتِ الملائكةُ مِنْ شِدةِ الجبالِ فقالوا يا ربِّ هلَ مِنْ خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِنَ الجبالِ قال نعمْ الحديدُ قالوا يا ربِّ هلْ مِنْ خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِنَ الحديدِ قال نعمْ النارُ فقالوا يا ربِّ هلْ مِنْ خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِنَ النارِ قال

نعمْ الماءُ قالوا يا ربِّ هلْ مِنْ خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِنَ الماءِ قال نعمْ الريحُ فقالوا يا ربِّ فهلْ مِنْ خلقِكَ شيءٌ أشدُّ مِنَ الريحِ قال نعمْ ابنُ آدمَ تَصدقَ بصدقةٍ بيمينِهِ يُخفيها مِنْ شِمالِهِ}(الترذي و احمد). وكقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [سورة البقرة، الآية 164].

تتجلى العناية الإلهية بالإنسان في تسخير المخلوقات له، فالبحر: المالح، والمر، لحكمة نقاء الهواء، فلو يحلو، لأنتن ما يموت فيه الدنيا، وفنيَ الإنسان، وأعذب ماء الأنهار لتستمر حياة الإنسان، فبين حلو الماء ومره جعل كل شيء حي، وهكذا يحي لإنسان، يتقلب بين مرارة الحياة تمحيصا له، وحلوها لتستمر الحياة، وجعل النجوم والجبال منارات يهتدي بها في الأسفار، ومن التراب بدئ الإنسان وإليه ينتهي فسبحان الله العظيم.

ظل الشاعر يتحسس هذا الجمال وتلك الأسرار ويغذي بها روحه وقلبه وعقله، ويدعوالآخرين إلى رؤية للعالم بهذا المنظور لأخذ قسط من هذه النفحات والتنعم بهذا الجمال، فبعد هذه الجولة القصيرة مع عناصر الكون والتفاعل معها والتوحد بها وجدانيا وروحيا نجد الشاعر ينهي مقطعه بقوله:

يا دم الكون

يا دمي

أجج العشق نارا ونورا

واتل للعالمين كتابك

كي تستفيق العقول

وتزهر بالمجد هذي السطور(عثمان، 2000، صفحة 11)

يعود الشاعر من رحلته الفلسفية عبر السماوات إلى الأرض، حيث كان يتساءل عن الذات الإنسانية وهويتها في هذا الكون الفسيح محاولا الخروج من حالة القلق والحيرة التي يعيشها بسبب سر هذه الروح

الإنسانية القادمة إلى الأزل فالإنسان يموت كجسد عضوي يتحلل في التراب لكن الروح يبقى ومعه يبقى دائما الحنين إلى أصلها لتتحد به بعد أن انفصلت عنه، يعني هذا أن مصدر الروح إلهي وهذا ما تحقق عبر مر الزمان، فقد أعجز لله سبحانه وتعالى الملحدين أن يبعثوا حياة بالروح، أو حتى يدركوا سرها، يقول تعالى:﴿ **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ** ﴾ [سورة السجدة، الآية 9].ويقول تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)** ﴾،[سورة الإسراء، الآية85]، فيقول الشاعر:

آه يا جسد الطين يا جسدي

إن سلختك بالأمس عني

وغادرت هذا التراب وهذي الحفر

فلكي أتبطن غامض سري

وانحت من صاعق الرعد

معنى لهذا الوجود

وأرفع بالدم والنار

معراج كل البشر(عثمان، 2000، الصفحات 26-27)

ويمعن الشاعر النظر في فضل الله عن الإنسان إذ فضله الله سبحانه وتعالى على باقي المخلوقات وميزه عنها فتحدث عن نفسه ومكانته في هذا الوجود ودوره الفعال في الحياة إذ هو الرائد والرائد لا يخون قومه ويشير الشاعر إلى المراحل التي مر بها الإنسان حتى تبوأ هذه المكانة ويصل إليها ويكون المخلوق الأفضل من بين المخلوقات الأخرى مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾. [سورة الإسراء، الآية 70.]فيقول الشاعر:

حتى تبوأت عرش الجلال

وتساميت نحو الكمال(عثمان، 2000، صفحة 37)

ومع مقام الجلال الذي أحل الله فيه لإنسان يلفت الشاعر نظر الإنسان لأصله الذي جاء منه هذا المخلوق المفضل على بقية المخلوقات ألا وهو الطين، هذا الطين الذي كان ذات يوم عبارة عن مادة بسيطة، فشاء الله سبحانه وتعالى أن يخرج منها معجزة ألا وهي الإنسان فصوره في أبهى صورة وأجملها وبث فيه من روحه تعالى فجعله إنسانا يتحرك ويفكر ويحس ثم بعثه إلى الأرض ليكون خليفته فيها، وفي هذا إمعان في الإقرار بمطلق فضل الله على الإنسان فيقول الشاعر:

إنه الطين صيرورة النبض

أسطورة الأرض

يا آية الطين(عثمان، 2000، الصفحات 37-38)

ويستمر الشاعر في بيان كيف صار ذاك الطين هذا الإنسان خلقا من بعد خلق، من البدايات الأولى لخلق الإنسان والمراحل التي يمر بها، فيتحدث عن النطفة والتي هي سر التناسل والتكاثر وهي البداية االثانية بعد الطين في مراحل تكون الجنين ثم تتحول هذه النطفة إلى أمشاج أي قطع لحمية صغيرة ثم إلى دم وهكذا دواليك حتى يصير جسم إنسان متكامل الأعضاء والأطراف بمشيئة الله سبحانه وتعالى فيقول عثمان لوصيف:

نطفة هي...

جذر لبدايات تمتد

أسطورة الماء أمشاجه علقة

ثم كان دم(لوصيف ع.، 2000، صفحة 40)

وهذا يعكس لنا إسلاميةمصدر شعريةعثمان لوصيف، فيبدو نهله من هذا المورد عقيدة راسخة،فهنا رابط بين العقيدة والشاعر فقد أبان عن مذهبه أو اتجاهه الصوفي الإسلامي في عمله الأدبي إذ يغرف من القرآن الكريم إذ تبدو مرجعيته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**﴾[سورة الحج، من الآية 5].

ينتقل الشاعر بعد حديثه عن البدايات الخاصة بتكوين الإنسان إلى وصف كل ما يحيط به ويتغنى بهذه الحياة ويحدثنا عن كل ما هو جميل ليلتحم الشاعر بهذه الأرض التي هي في أمس الحاجة إلى أمثاله من الشعراء في رؤياه، والشاعر هنا يريد أن يعرفنا بمكانته في هذا الوجود ودوره الفعال في الحياة،فهو الرائد والرائد لا يخون قومه، الإنسان اختير للقيام بمهمة في هذا الكون ودعم بالنبوءات حتى لا يضل ولا يشقى، فيقول:

أنا من مهجة

حية النبضات إلهية الومضات

كنت في رحم الغيب

لكنما سيدي إلى السماوات حين استبدت

به الصبوات

كشف اللغز عني

اجتباني

وأيدني بالنبوءات والمعجزات(لوصيف ع.، 2000، صفحة 44)

ويواصل الشاعر حديثه عن هذا العالم فكل شيء أمامه يذهل ويمتع، وفي كل هذه الأجواء المدهشة يجد الشاعر استقرارالحالته النفسية.

ويركز الشاعر قمرته لتصوير عطاءات المرأة المعنوية فيعتبرها قطب في رؤية العالم،فهي التي يتزود بها الإنسان حتى يتغلب على مصاعب الحياة ومتطلباتها، فيصفها وفي وصفه لها رموز صوفية كـ: الدندنة، العشق، الفيض، اللدن، يقول الشاعر:

أيقونة الله تعميق بالدندنات

وتنضح بالعشق

والنشوة الضارية

آه... يا امرأة يزهر الكون

في فيضها اللدني

ويخضوضل اللون

في نارها الصافية(لوصيف، 2000، صفحة 55)

ينتقل الشاعر إلى مخاطبة الإنسان مذكرا إياه بالحفاظ على الأمانة التي وضعت بين يديه ومكانته في هذا الوجود الذي هيأه الله سبحانه وتعالى وأعد كل ما فيه لاستقبال خليفته في الأرض ألا وهو الإنسان حيث يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾.[سورة البقرة، الآية 32].

فالإنسانلم يخلق عبثا وإنما لأداء رسالة من أجلها وجد في العالم وهي الخلافة يقول الشاعر:

أيها الآدمي الذي يتجبر

قد سطعت على الملكوت

إلها صغيرا

وأورتك الحق هذي البسيطة

أنت الخليفة فيها فلا تتنكر(عثمان، 2000، صفحة 58)

وبعد هذه الدعوة من الشاعر إلى الإنسان لكي يعود إلى هداه ويرجع إلى فطرته وطبيعته التي من أجلها وجد، يوجه اللوم إلى الإنسان الذي تجاوز طبيعته ونسي أو تناسى وظيفته الحقيقية ليجري خلف شهواته وأهوائه مفسدا في الكون فيقول:

أيها الآدمي تذكر

نفخة الحق فيك

وكيف اصطفاك لتحتضن الأرض

تفرشها أغنيات

وعشقا وعنبر

أيها الآدمي تعطر

بالهوى

ثم صل مع العاشقين وكبر

فإذا غلبتك الغرائز

فالله أكبر!(لوصيف، 2000، صفحة 61)

فييأس الشاعر ويتحصر على الحالة التي وصل إليها الإنسان من ترد في هذه الحياة التي سخرها الله له وحده وينعي عليه أفعاله الشريرة التي ملأت جنبات الكون حيث عم الإفساد والخراب بدل أن تكون الخلافة والعمارة وهي المهمة النبيلة التي خلق من أجلها فيقول الشاعر مصورا ما اقترفته الإنسانية في حق نفسها:

مدن وعواصم كن يشعشعن

بالنور والأغنيات

فصرن خراب

ها هنا جثث متفحمة

وجماجم مشجوجة

ها هنا أذرع

ها هنا أرجل

ها هنا خرق باليات

هنا جسد امرأة

دونما اسم ولا خاتم أو ثياب

ها هنا شقفات وقضبان نافذة

وحطامات باب(عثمان، 2000، الصفحات 63-64)

لكن رغم هذا فالشاعر لا ييأس ولا يقنط، بل عكس ذلك فهو متفائل يدعو إلى معاودة الكرة من الإنسان ليعمر الكون بالخير والحق والجمال والعودة إلى الطبيعة النقية والفطرة السليمة لعمارة الكون ثانية وثالثة على الحب والتفاؤل والأمل؛ لأنه يؤمن بأنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس ولابد لليل أن ينجلي كل صباح لتشرق الشمس وتزقزق العصافير وتدب الحياة ويتحرك كل شيء كان ساكنا. فيقول مخاطبا حبيبته ورفيق دربه:

آه يا زهرتي في اليباب

لا تقولي الحياة سراب

وتعالي

لنجمع هذي الجراح

ونعجن منها رباب

فغدا يستعيد الربيع نضارته

وتشع الطفولة

من كل باب(عثمان، 2000، صفحة 69)

وتنسحب صوفيته في رؤيتها العالم على رابطة الحب الإنساني، وما كانت لتغفله،فيسمو به لمعارج عالية حيث يناجي المرأة برموز الصوفية مثل: (الفيوضات، شرعة الحب، معبودتي، استغفري) لتؤازره في رحلته الشاقة حيث لا يمكن التخلي عن إنسانيته، فلا بد من المؤازر والرفيق، الرفيق، والذي لا يكون غالبا إلا المرأة إذ جاء المقطع الأخير كله غزل صوفي فيقول:

لا تجزعي

وابسمي تأْرج الأغنيات موغوغة

في مدى ليلنا المقمر

ها أمدّ إليك دمي ألقًا

فاصعدي منبرا

وانهلي من فيوضات شعري

واعتنقي شرعة الحب

بالله! لا تكفري

آه معبودتي

آه أنشودتي

شعشعي الكأس واستغفري(لوصيف ع.، 2000، صفحة 90/89)

خاتمة:

يخلص القارئ لهذه المقاطع الشعريةإلى اكتنازها تأملات فلسفية، ومعان صوفية حد الشطحات، ودينية تتناص مع القرآن والسنة، وحقائق علمية عن الخالق والخلق والمخلوقات، انتهى فيها الشاعر إلى رؤية كونية للعالم في مفهوم الصوفية، وهي تجربة شعرية لها مميزاتها نوجزها فيما يلي:

– التجربة المعاصرة: فالشاعر معاصر استمد من لغة عصره نظمه في إطار صوفي ضارب في القدم، ويعد ركوبه الشعر الحر وسيلة تعبير أبرز مميزات المعاصرة، وقد كانت تجارب الشعرية الصوفية من بدايتها عمودية الشعر.

– سنية التصوف: لم يخرج الشاعر في رؤياه للعالم عن الصوفية السنية؛ حيث انطلق من الأمر الإلهي القرآني "كن" وراح يتتبع صداه في العوالم العلوية والسفلية. مستندا للقرآن والسنة في حديثه عن الروح والخلق، وفق فهم أهل السنة، ودعا من شطت به صوفيته، أو فلسفته، للاسترشاد بنور للقرآن.

– الدعوة لتخليص الصوفية من الدروشة: ثار على الصوفية التي تجانس الدجل والشعوذة، والمتمثلة في مشيخة تمارس طقوسا هي للسحر أقرب من العبودية، قوامها الخرق والبذاذة، والدفوف والبخور، والقراطيس والحواشي... .

– شمولية الصوفية: يرى الشاعر الصوفية ثورة شاملة تبحث عن الحقيقة المطلقة، ومنهج حياة تسخر كل متاح من تيكنولوجيا العصر، وفلسفة وعلوم وفنون وآداب، لتخترق الحجب عن حقيقة الإنسان والكون...، وتلك هي رؤية العالم والصوفي فيها رائد البحث وصانع الحياة ومحركها.

– الرميزية: تعرف الشعرية الصوفة بلغتها الرمزية فالوردة في قاموس الشاعر رمز للحياة ورمز للشاعر بكل تفاؤله وإقباله على الحياة...، ثم مُضِيِّه نحو الذبول كالوردة، كما يقابل رقة الوردة رهافة حس الشاعر، وعبق الوردة شعرية الشاعر... فهو حامل دم – رسالة– النبوة، والناضح بالنبوات، لرونقة الكون بالشعرية، كما ترونق الوردة الحياة بعبقها.

– تضفي شعرية التصوف عند عثمان لوصيف على المرأة شيئا من القداسة إذ تخاطبها بتلك الألفاظ الصوفية فتجعل (حبها شرعة، معبودة، تنهل من الفيوضات، وتشعشع الكأس)، لكن لا كما هي حقيقة الألفاظ، بل رموز صوفي في شطحته، ثم هي قول شاعر... ولله الأمر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، [د: ط، ت].
2. ينظر سعيد أحمد غراب، شعر لمناسبات الدينية ونقد الواقع المعاصر، ط[1]، كفر الشيخ، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2007م.
3. ينظر السعيد بوسقطة، الرمز الصوفي الشعر العربي المعاصر، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 1429هـ، 2008م، ط2.
4. أليف جان فرانسو دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، تر، جورج كتوره، 2009م، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات، الإمارات.
5. هيندلس. ر، مفهوم النظرة إلى العالم وقيمته في نظريّة الأدب، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، مجلّة آفاق، ع 10، 1982م، الرباط.
6. محمد تقي مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الاسلامية، دار الرسول الكريم، بيروت، لبنان، ج1، ط8، 1429هـ 2008م.
7. صلاح فضل ، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ميرت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط[1]، 2002م.

8. عبد الرزاق نوفل، التصوف والطريق إليه، دار الكتاب العربي، بيروت، [د ط/ دت]،.
9. ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الفكر، سورية.وانظر صابر عبد الدائم، الأدب الصوفي، دار المعارف، مصر.
10. فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، [د،ط]،1985م.
11. محمد مرتاض، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 2009م.
12. محمود يوسف الشوبكي، مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، مجلة الجامعة الإ سلامية– المجلد العاشر ، العدد الثاني، 2002.
13. أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، طبعة ليدن، 1960م.
14. سليمان سليم علم الدين، دعوة التوحيد الدرزية، ط[1] ، بيروت 1998م.
15. عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، مطبعة الرسالة، 1955.
16. عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس،، الإسكندرية، مصر، ط[1]، 1983م.
17. إبراهيم محمد منصور، (الشعر الصوفي)، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1999،1م.
18. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمصر، ط [2].
19. إبراهيم قرصاص، الصوفية عندي ثورة للتغيير وقيادة البشرية، جريدة صوت الأحرار، عدد 474، التاريخ: السبت 18 سبتمبر 1999.
20. عثمان لوصيف، شبق الياسمين، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، [د: ط ،ت].

21. عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 1، 1982.

22. عثمان لوصيف، ديوان قالت الوردة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000م.

23. أخرجه الترمذي (3369)، وأحمد (12253) باختلاف يسير، ابن حجر العسقلانيتخريج مشكاة المصابيح الصفحة أو الرقم2/299 :فيه مجهول. ضعيف.